نظرية المحاكاة:

توطئة:

تعود نظرية المحاكاة إلى القرن الرابع قبل الميلاد، وقد كانت نشأتها ضمن الفكر اليوناني، وهي ترتبط بآراء كل من أفلاطون وتلميذه أرسطو. وتعد هذه الآراء هي التي تؤسس لنشأة نظرية الأدب عبر التاريخ. وتعد الفلسفة المثالية هي الخلفية المعرفية التي نشأت فيها نظرية المحاكاة ثم تطورت. والمحاكاة هي فعل إبداعي يمثل بالكلام أو التشخيص أو بهما معا الأفعال الإنسانية بأحسن مما عليه أو أخس مما هو عليه في الواقع، مصدرها ملكة الخيال، وغايتها التأثير في خيالات المتلقين.

1-آراء أفلاطون:

يعد أفلاطون (427-347ق.م) رائد التفكير النقدي حول الشعر والفن، رغم أنه قد سبق بآراء متفرقة تعود إلى كل من هوميروس شاعر اليونان الأول، وهزيود الذي يرى أن وظيفة الشعر هي التعليم أو نقل رسالة سماوية. وقد كان أفلاطون حكيما وعارفا بالموسيقى والنحو والشعر اليوناني.

وقد جاءت آراء أفلاطون منثورة في كتبه المعروفة منها كتاب الجمهورية وكتاب أيون وكتاب القوانين؛ بمعنى أننا لا نجد عنده كتابا مستقلا مخصصا للدراسة الأدبية. وتتشكل هذه الآراء مكونة ما يسمى نظرية المحاكاة. وقد تضمن كتاب الجمهورية هذه الأفكار خاصة في الفصل العاشر الذي يحمل عنوان: **التقليد وجزاء الفضيلة.**

"ويرى أفلاطون أن كل الفنون قائمة على التقليد (محاكاة لمحاكاة) وينطلق في هذا من إيمانه واستناده إلى الفلسفة المثالية التي ترى أن الوعي أسبق في الوجود من المادة، لذلك يرى الكون مقسم إلى عالم مثالي وعالم محسوس طبيعي مادي، والعالم المثالي أو عالم المثل يتضمن الحقائق المطلقة والأفكار الخالصة والمفاهيم الصافية النقية، أما العالم الطبيعي أو عالم الموجودات فهو –بكل ما تحتويه من أشياء وأشجار وأنهار وأدب ولغة.....- مجرد صورة مشوهة ومزيفة عن عالم

المثل الأول الذي خلقه الله. وبتعبير آخر أن العالم الطبيعي محاكاة لعالم المثل والأفكارِ الخاصة."[1]

يقسم أفلاطون العالم إلى عالم المثل وهو عالم الأفكارِ الخالصة والمطلقة وعالم الموجودات والمحسوسات وهو عالمنا الذي نعيش فيه، وهو صورة عن عالم المثل لهذا فكل الموجودات في هذا العالم غير مكتملة. ولهذا فلا يمكن أن تتطابق الصورة مع الفكرة الأصليّة. ثم يأتي عالم المتخيل – الأدب خاصة الشعر- وهو العالم الذي يخلقه الكاتب مستندا إلى الجمع بين محاكاة عالم المحسوسات واستعمال التخيل. ولهذا يكون عالم الأدب حسب أفلاطون عالما من الدرجة الثالثة، فهو محاكاة لعالم هو أيضا محاكاة لعلم المثل.

ويصل أفلاطون إلى الحكم على أن الشعراء لهم القدرة على تزييف الحقائق، مما يجعلهم خطرا على الأخلاق وعلى المتعلمين خاصة الأطفال. ولا يمكننا أن نتعامل مع أفكارِ أفلاطون بعيدا عن السياق الذي نشأت فيه، وهو الذي كان هدفه إقامة مدينة فاضلة تسود فيها المثل.

-وظيفة الشعر عند أفلاطون:

يرى أفلاطون أن المهمة الفاضلة للشعر تتجاوز المتعة إلى المنفعة، مما جعله لا يخرج كل الشعراء من جمهوريته، حيث يرى أن "الشعر يصعّر النفس، لأنه يجرنا إلى الشعور العميق بآلام الآخرين، فتضعف عزائمنا ونقعد على حمل أحلامنا؛ ولذا كنا ملزمين رغم إرادتنا أن نضع القانون القائل: يباح من الشعر فقط تسابيح الآلهة وتقاريظ كبراء الرجال، والأعمال الشريفة؛ لأن الصلاح ليس أمرا سهلا، وعلينا حتما تجنّب كل ما يعارض نمونا في الفضيلة."[2]

يقسم أفلاطون الشعراء إلى قسمين، قسم أول مهمته تصغير النفوس وإضعاف العزائم، وقسم ثان مهمته هي محاكاة بطولات الرجال العظماء، والأعمال الشريفة، وهو النوع الذي يجب أن يسود في مدينته الفاضلة.

من جهة أخرى فإن شعر المأساة عند أفلاطون يولد عاطفتي الشفقة والخوف لهذا فإنه يرفض هذه السمة، لأنها كما سبق وذكرنا تنمي صفات الضعف مما يؤثر في سلوك الناس اليومي. حيث يرى أن " المأساة تجعل المشاهد أكثر حزنا وخوفا الأمر

الذي يؤدي إلى استسلامه للعواطف والانفعالات وبالتالي تبعده عن استخدام العقل وتجعله إنسانا ضعيفا."[3]

2-آراء أرسطو:

يعد أرسطو(384-322 ق.م) وهو تلميذ أفلاطون البارز أهم الذين كتبوا في نظرية المحاكاة، ونعثر على ذلك في كتابه "فن الشعر" الذي "هيمن على العقل الأدبي والنقدي الأوربي لمدة تزيد على الألفي عام، فقد ظل أساسا للنقد الكلاسيكي الأوربي حتى أواسط القرن الثامن عشر."[2]

يحاول أرسطو تجاوز أفكار أستاذه أفلاطون خاصة في تحديده لمفهوم المحاكاة، حيث يحصر أرسطو المحاكاة في مجال الفن والأدب، فالشعر عنده هو عبارة عن محاكاة للناس وأفعالهم سواء كانت هذه الأفعال نبيلة وجليلة وعظيمة أو خسيسة ودنيئة ومتواضعة. فالشاعر عنده "لا يحاكي الأشياء ومظاهر الطبيعة فحسب، بل يحاكي أيضا الانطباعات الذهنيّة وأفعال الناس وعواطفهم، والإنسان المحاكي إما أن يكون مثاليا عظيما أو أقل مستوى."[3]

وتأخذ المحاكاة عند أرسطو أشكالا عديدة ومختلفة، فهو يرى أن هناك ...أناس يحاكون أشياء كثيرة عن طريق عمل صور لها مستخدمين الأشكال والألوان، وهنالك آخرون يستخدمون الأصوات والأوزان وإيقاعاتها مثل الضاربين على القيتارة أو الصافرين على الناي الذين يستعملون الوزن والإيقاع، أما المشتغلون بفنون الرقص فيستخدمون الوزن وحده دون الإيقاع، ولكن هناك من يحاكي عن طريق استخدام اللغة وحدها شعرا أو نثرا، وهذا الفن هو فن الشعر الذي يستعمله أرسطو للدلالة على جميع الأجناس الأدبية المعروفة في زمن أرسطو وهي: الملحمة والتراجيديا والكوميديا ....[4]

-وظيفة الشعر عند أرسطو: "التطهير"

ويرى أرسطو أن المحاكاة الشعرية تحتاج إلى مصدرين، الأول خارجي والثاني داخلي، حيث إن الأول لا يتدخل فيه الشاعر، ويتلقاه بشكل سلبي، والثاني يرجع إلى ذات الشاعر ويصدر عنها....[5]

ويتفق أرسطو مع أفلاطون في مهمة الشعر ووظيفته، ولكنه يختلف معه في اعتبار أن التطهير وهو وظيفة الشعر

المثلى شارحا ذلك بأن المسرحية المأساوية تثير عاطفتي الخوف والشفقة مما يجعل المتلقي أكثر قوة. فلو شاهد مأساة معينة فإنه يشعر بالشفقة على البطل التراجيدي الذي يلق نهاية محزنة وهي النتيجة التي لا يستحقها. ثم يشعر المتلقي أو المشاهد بالخوف من هذه النهاية التي قد تحدث له. ومن خلال هذين العنصرين يحقق الشعر وظيفة التطهير.

خلاصة:

تبقى نظرية المحاكاة هي أم النظريات الأدبية والنقدية التي ستأتي بعدها بقرون، لأن هذه النظرية ستبقى مسيطرة على التفكير الأدبي الغربي لقرون طويلة تصل إلى عصر النهضة الأوربية، خاصة في شقها الارسطي.

الهوامش:

1-**شكري عزيز ماضي: في نظرية الأدب، دار الحداثة، بيروت، ط 1، 1986، ص 18، 19.**

2-أفلاطون: الجمهورية، ترجمة حنا الخباز، دار كوكب العلوم، الجزائر، ج 3، ط 1، 2018، ص 556

3- شكري عزيز ماضي: في نظرية الأدب، ص 42.

3-المرجع نفسه، ص 36.

4-ينظر: عيد الدحيات: النظرية النقدية من أفلاطون إلى بوكاشيو، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط 1، 2007، ص 58، 59.

5-ينظر: يوسف الإدريسي: التخييل والشعر، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط 1، 2012، ص 67.